هالات من نور

الناشر : المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٢٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار الاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

هالات من نور

« أفمن شرح الله صدره للاسلام
فهو على نور من ربه »
(صدق الله العظيم)

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين . أما بعد . .

فهذا كتاب سميته هالات من نور والنور هنا هو الذى عاناه الله فى قوله « الله نور السموات والأرض » فهو نور الهدى والإرشاد . . يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور». « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » « الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور » . « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » .

فاللهم اجعل من فوقنا نوراً ، ومن تحتنا نوراً ، ومن بين أيدينا نوراً ومن وراءنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً ، وفى قلوبنا نوراً واجعلنا نوراً .

وهذا الكتاب قد احتوى على مجموعة من الموضوعات الإسلامية سهلة المذاق ، حلوة فى طعمها كالثمار الدانية أردت بها وجه الله أولا وأردت بها ثانياً أن ينفع الله بها قارئها ، خاصة الذين يعملون فى مجال تبليغ رسالات الله ، فإنها صالحة للمنابر إذا ما قدم لها بالحمد والشهادتين وقد بذلت فيها — مستعيناً بالله — أقصى ما أستطيع يبذله ، وهذا جهد المقل فإن أكن أحسنت فما توفيقى إلا بالله،وإن أكن غير ذلك فمن نفسى والنفس فى مسيس الحاجة إلى عفو الله،فاللهم تقبل هذا الكتاب بقبول حسن وأنبت ثمرته فى القلوب نباتاً حسناً . إنك نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير ، وصلى الله على البشير النذير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين .

المؤلف

عبد الحميد كشك

من آيات الله

آيات الله تعالى وكلماته التكوينية ومعجزاته المبثوثة فى الأكوان سواء منها الأفاقية والأنفسية لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » . .

إن الله تعالى أيد أنبياءه بالآيات القاطعة والبراهين الساطعة ،وجاءت تلك الآيات متنوعة ومتعددة . فمنها المعجزة القولية ونعنى بها القرآن الكريم . . وهو ذلكم اللفظ العربى المنزل من عند الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحى المتعبد بتلاوته ،المتحدى بلفظه المنقول إلينا بالتواتر ، وهو نقل جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب .

نعم : إذا كان هذا قرآنا صامتاً فإن القرآن كون ناطق ، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشى بين الناس .

إن القرآن هو المعجزة الخالدة لا ينضب معينه ،بل كان وما زال وسيظل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة لا يستطيع الزمان أن ينال منه مهما تطاولت الآماد وامتدت الآباد فإن عهده بالحياة متجدد دائماً « قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيما » .

« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين» .

إن ذلك القرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم ، شرف هذا الوجود عزة هذه الأمة ذلك الكتاب « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى » .

لذلك فإن أشرف كتاب هو ذلك القرآن العظيم . . نزل على أشرف نبى . . هو محمد صلى الله عليه وسلم على خير أمة هى أمة الإسلام ، فى خير شهر هو رمضان المعظم بواسطة خير ملك هو سفير الأنبياء ، وكبير أمناء وحى السماء فى خير ليلة هى ليلة القدر ، فى خير بلد هى مكة المكرمة ، بخير لغة وهى اللغة العربية من أعلى مستوى « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » بأقوم نهج « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا » بأعظم هدف « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

لذلك قرر العلماء أن أفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين هم أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وقال تعالى « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليما » .

وأفضل أولى العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم ،وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، وصاحب لواء الحمد وصاحب الحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة الذى بعثه بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فاق به من قبلهم ،وهم آخر الأمم خلقاً وأول الأمم بعثاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه — يعنى يوم الجمعة — فهدانا الله له « الناس لنا تبع فيه غدا لليهود وبعد غد للنصارى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أول من تنشق عنه الأرض » .

وقال صلى الله عليه وسلم « آتى باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول أنا محمد فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة ،ومن حيث بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به

وبما جاء به واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

قال الحسن البصرى : رحمه الله ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ،وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من أولياء الله .

« وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا علىّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد » .

والقول الفصل الذى لا مراء فيه ، هو ما بينه عالم الغيب والشهادة فى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

ومسك الختام فى تلك القضية التى تقرر وجوب الإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

فاللهم ارزقنا إيماناً صادقاً ، وعملا متقبلا ، ولساناً ذاكراً وبدنا على البلاء صابرا ، واجمع لنا بين خيرى الدنيا والآخرة .

الثبات على المبدأ

علمنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الثبات على المبدأ مهما أدلهمت الخطوب واحتدمت المحن – وقد تجلى ذلك بصراحة ووضوح عندما اشتد الأذى على قائد المسلمين الأعظم ، فكلموا عمه أبا طالب فى شأنه أن أمنع ابن أخيك عنا . واستدعاه عمه وقال له ، يا ابن أخى دع هؤلاء القوم وشأنهم ورفع الرسول رأسه والعبرات تترقرق فى عينيه وقال قولته الشهيرة التى أصبحت مثلا وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها قال : والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، فقال له أبو طالب: يا ابن أخى قل ما بشئت فوالله لا أسلمك إليهم أبداً ثم قال : والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا ولقد علمت بأن دين محمد .. من خير أديان البرية ديناً . هذا هو الثبات فى أجل معانيه، ضربه مثلا للبشرية أستاذ الإنسانية الأكبر ، وها نحن أولا نقدم خريجاً تخرج فى هذه المدرسة التى كانت شعارها « لو وضعوا الشمس فى يمينى » إنه الصحابى الجليل عبد الله بن حذافه .

إنه مجاهد كريم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يناضل فيصدق فى النضال ويذوق مرارة الأسر فلا يلين ولا يهون ، بل يثبت

ويصبر ويضرب مثلا رائعاً فى الاحتمال وحسن الاحتيال لتحقيق الخير للاسلام والمسلمين .

إنه الصحابى الجليل عبد الله بن حذافه السهمى رضى الله عنه ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام « والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » وكان من المهاجرين إلى الحبشة وشاركه فى الرحلة أخواه : قيس وخنيس . . وشهد غزوة بدر ، فكان من الذين قال فيهم الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . « لعل الله أطلع على أهل بدر فقال لهم « اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم ».

وظل مجاهداً مناضلا فى رحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اختاره ليكون مبعوثه إلى كسرى ملك الفرس ، ليدفع إليه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام . ويقول له فيما يقول « أدعوك بدعاية الإسلام فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » يعنى أهل فارس لأنهم يعبدون النار ووصل عبد الله بن حذافه قصر كسرى ، وطلب مقابلته ليقدم إليه الكتاب ، فأراد بعض الحاشية أن يأخذ منه الكتاب ليسلمه أو ليرفعه — إلى مولاه كسرى » فأبى عبد الله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أسلم الكتاب بيدى إلى كسرى نفسه — وبعد تمنع ومراجعة أدخلوه على كسرى . فأقبل نحوه بلا خوف ولا وجل ، وبلا تقيد بأوضاع كانوا يلتزمونها عند لقاء كسرى ، وكلها تدل على تجبر الحاكمين المتألهين فى

المحكومين المستضعفين ، ومد عبد الله يده بالكتاب إلى كسرى ، وكأنه يقول له خذ هذا لك ، فتسلم كسرى منه الكتاب وأعطاه لمن يقرأه ، فإذا فى أوله : « من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى كسرى أن يذكر اسم الرسول قبل اسمه ، فأخذ الكتاب من يد قارئه ومزقه ،قبل أن يعلم ما فيه . ومع أن عبد الله بن حذافة رجل غريب وحيد ، وفى داخل عرين الأسد المتوحش الهائج ، ومن حوله الجنود والحراس والخدم والحشم لم يخف ولم يفزع ، بل لعل نور الحق أضاء فى جوانب فؤاده ، فأدرك أن نهاية هذه الطاغية قريبة ، مادام يندفع فى تهوره ورعونته . بهذه الصورة ، ولم يتحرك عبد الله من مكانه حتى أمر كسرى بإخراجه ليعود إلى بلاده . ولما عاد وأخبر الرسول بما كان ، قال عليه الصلاة والسلام « فرق الله ملكه » وكانت دعوة أجراها القدر على لسان النبوة ، فما هى إلا أيام حتى لقى كسرى مصرعه على يد ابنه شيرويه ، كما تقول بعض مصادر التاريخ ، ويقال أن ابنته خلفته من بعده ،فلما بلغ ذلك النبى قال : « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » ومضت الأيام والأعوام ، وابن حذافة حيث هو من موقعه فى نصرة الإسلام ، وأقبل عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى فرق بكتائب الإيمان طغيان الأكاسرة . وبغى القياصرة وقد جهز عمر أحد الجيوش إلى بلاد الشام ليحررها من طغيان الروم المحتلين لها ، وكانت حكمة الشام » حينئذ تطلق على سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن حذافة من جنود هذا الجيش ، وبذل فى

الجهاد ما استطاع ، ثم وقع أسيراً مع جمع من أخوته وزملائه فى النضال والكفاح والسلاح وكان أسرهم فى بلده « قيساريه » من أرض فلسطين المحتلة وأظهر عبد الله شجاعة أذهلت جنود الروم ، فحملوه إلى ملكهم فعرض الملك على عبد الله وسائل التأثير المختلفة ليخضع أو يخنع ، فلم تجد معه شيئاً . عرض عليه أولا أن يعطيه الواسع الفسيح من العقار والديار على أن يترك دينه . فقال له ابن حذافة : والله لو أعطيتنى جميع ما تملك ما رجعت عن دينى طرفة عين : فطالبه بأن يخبره بأسرار جيش المسلمين ، فأبى واستعصم فهدده الملك بالقتل فأجاب ابن حذافة : أنعم بها من شهادة ، فعلقوه على هدف كالمصلوب ثم أمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه ، ولكن الطود الشامخ الثابت الوطيد الإيمان واليقين ظل شامخاً راسخاً لم يخف ولم يفزع ، فحلوا وثاقه ، ليقتلوه إلى لون آخر من ألوان التعذيب ، وهنا بكى عبد الله بن حذافة ، فظن أعداؤه أن الضعف قد أدركه ، ولكنه أفزعهم وأرعبهم حين قال لملكهم « لا ترى أنى بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بى ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نفس واحدة يفعل بها هذا فى الله أكنت أحب أن يكون لى من الأنفس عدد كل شعره فما ثم تسلط على فتفعل بى هذا ، ثم حبسوه فى سجن انفرادى بلا طعام ولا شراب ، ولكنهم وضعوا بجانبه خمراً ولحم خنزير فمكث عبد الله ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، حتى بدأ الضعف عليه ، ولما سألوه : لماذا لم تأكل من لحم الخنزير ولم تشرب من الخمر ؟ أجابهم

بقوله : إن الضرورة تجيز لى هنا أن آكل من لحم الخنزير وأن أشرب من الخمر ، لأن الله تعالى يقول : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ولكنى كرهت أن تشمتوا بالإسلام .

وازداد إعجاب الملك الداخلى بشجاعة عبد الله بن حذافة فرمى إليه بآخر سهم فقال له : قبل رأسى وأن أطلق سراحك ففكر عبد الله قليلا . ثم أجاب بقوله : أن نفسى لا تعينى ولكن إن أفرجت عن أخوتى الأسرى قبلت رأسك . وفرح الملك المغرور ، فظل همه محصوراً فى أن يكلف هذا الأسير العملاق بأى شىء يطيعه فيه ويعمله ،وبعد أن أخذ عبد الله المواثيق عليه قبل رأسه ، فأفرج عنه الملك وأفرج له عن ثمانين أسيراً من المسلمين . وعاد ابن حذافة معهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب فلما رآهم فرح بهم فرحاً شديداً ، وحمد الله على نجاتهم ،وكأنهم قد ولدوا فى نظره من جديد وسألهم عن أخبارهم فقص عليه عبد الله بن حذافة ما حدث . وهنا قال عمر لمن معه من المسلمين : حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة وأنا أبدأ وسارع عمر بالنهوض وأقبل على رأس ابن حذافة يقبله تكريماً له وتابعه فى ذلك كل من حضر ،وشتان بين تقبيل وتقبيل ،فتقبيل ابن حذافة لرأس ملك الروم كان لونا من الاحتيال لإطلاق سراح زملائه والحرب خدعة أما تقبيل عمر والمسلمين لرأس ابن حذافة فإنه تقبيل التكريم والتقدير والحب . فقد شهدوا أمامهم مثلا من أمثلة البطولة الفدائية الصابرة ورأوا كيف جمع عبد الله بن حذافة بين قوة النضال وطول الاحتمال

وحسن الاحتيال وتابع ابن حذافة نضاله فاشترك فى فتح الإسلام لمصر مع القائد عمرو بن العاص ولما استقر عمرو فى الفسطاط أرسله إلى عين شمس ففتحها وصالح أهل قراها،ثم جعله عمرو حاكما على الاسكندرية بعد فتحها .

وبعد حياة طويلة جليلة مجيدة ضم ثرى مصر رفات عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه ، لأن التاريخ يقول إنه مات فيها خلال خلافة عثمان ابن عفان .

فليت هذا الثرى يذكر أبناءه ببطولات أجدادهم وصفحات أمجادهم حتى يسير الأبناء على الدوام فى طريق الآباء .

نماذج من الآيات الإلهية

تحدثنا عن المعجزة القولية الخالدة التى لا تتغير بمرور الزمان واليوم نتحدث عن القسم الثانى من المعجزات وهو المعجزة الفعلية وهذا قسم استفاضت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وقد أجرى الله على يدى نبينا صلى الله عليه وسلم من هذا النوع الكثير من ذلك الإسراء والمعراج وانشقاق القمر قال جل « شأنه اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وقد ثبت ذلك أيضاً بصحيح السنة فقد اجتمعوا متحدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظروا إلى القمر ليلة التمام فرأوه منشقاً فاذا قالوا ؟ كانت هذه الآية المعجزة الكافية أن تبعث الهدى فى قلوبهم ، ولكنهم قالوا والحق أمامهم أجلى من الشمس فى ضحاها ، وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، قالوا إن محمداً سحر عيوننا فرأينا القمر هكذا منشقاً ، اسمع قول الله تبارك وتعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

إنها آيات كالصواعق تسير الجبال وتحرك العوالم ، وكيف لا ومنزلها جل جلاله يقول « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

ولكن قلوب هؤلاء المعاندين أشد صلابة وأقسى جموداً من جلاميد الصخور قال تعالى « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » وهم يعلمون علم اليقين أن نبى البشرية صلى الله عليه وسلم برىء كل البراءة من السحر بل إن كتاب الله شفع بالذين يمارسون هذا المنكر قال تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وهذا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى قال « اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هن يا رسول الله قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات والتولى يوم الزحف أى الفرار من ميدان القتال عند التحام الصفوف — وهو النبى الذى قال من أتى ساحراً أو عرافاً ثم صدقه فقد كفر بما أنزل على محمد وذلك لأن الله تعالى يقول «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .

وقد جاء فى السنة المطهرة أن من ذهب إلى ساحر أو عرافاً ولو لم

يصدقه فإن الله لا يقبل منه عمل أربعين يوماً » فهذا صريح فى أن مجرد الذهاب إلى هؤلاء وأمثالهم إنما هو اهتزاز عنيف فى العقيدة الصحيحة . ألم تقرأ قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ثم ألم تسمع قوله جل شأنه يخاطب حبيبه ومصطفاه فيقول « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ثم ألم يصلك قوله جل شأنه « إنا كل شىء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » ألم تقرأ قوله تعالى « وكل صغير وكبير مستطر » ثم ألم تفهم الرد الإلاهى الحاسم على قوم أصابتهم هزة فقال الله عنهم « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ويقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لايبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذى كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » .

فاعلم يا أخا الإسلام إنه لا يجرى فى هذا الكون شىء إلا وقد سبق به علم الله لا تهب نسمة هواء ولا تطرف طرفة عين ولايقع شىء صغير أو كبير إلا وقد سبق به العلم القديم ، وخطه القلم البديع فى اللوح المحفوظ .

لما حدث ما حدث يوم أحد قال جماعة « إن هذا أى من أين جاءنا

هذا وجاء الرد الإلاهى حاسما وجازماً قال تعالى « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنا هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

أيها المسلم إن رسولك الكريم يقول كل شيء بقضاء فلم الذهاب إلى أهل الباطل من العرافين والدجالين وأنت تعلم أن ما قدر على فكيك أن تمضغاه مامضغه « بعزة ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

إن الإسلام هو دين الحقائق جاء ليطهر القلوب من الأباطيل وبين حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، فالإسلام عزيز وقوى ينظر إلى الأمام دائماً « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

عجباً أيوصف هذا النبى بعد ذلك بأنه ساحر ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . فاللهم اشف صدورنا وأيدنا بالحق .

المعجزة والسحر

شتان ثم شتان ما بين المعجزة والسحر ذلك لأن المعجزة حقيقة مبنية على حق واقع لا مراء فيه ، ولا لبأس ولا غموض ولا اشتباه إذ هى آية من آيات الله المبينة وبرهان من براهينه الساطعة القاطعة إنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد الأنبياء تصديقا لهم مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله أما السحر فإنه صرف الأشياء عن حقيقتها قال تعالى « فأنا تسحرون » أى فكيف تصرفون عن الحق يقال (سحره) إذا صرفه عن الحقيقة .

ولذا فإن السحر مبنى على تخيلات فى الحواس أو أوهام فى العقل قال الله تبارك وتعالى قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

وقال جل شأنه « إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » ومن هنا فقد كان السحر كبيرة بل من أكبر الكبائر قال صلى الله عليه وسلم « من سحر فقد كفر » وإنما ينشأ السحر عن اتصال ممقوت بين الإنس الشرير والشياطين المردة قال جل شأنه « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء

الله إن ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون »

ومعنى قوله جل شأنه «ربنا استمتع بعضنا ببعض» أى انتفع بعضنا من بعض فالشيطان لا يخدم الشرير من الإنس إلا إذا كفر فترى بعضهم يتخذ صنما فيسجد له أو يستبين بالمصحف إلى غير ذلك من مظاهر السوء والفحشاء عندئذ يقوم الشيطان بما يشير عليه الإنس وبما يأمره به من فعل السوء وهذا هو انتفاع الإنس بالشيطان، فهل لذلك من علاج حتى يقينا الله شر الشياطين وأعوانهم من شرار الإنس ؟ نعم إن الشيطان قال للصحابى الجليل أبى هريرة وقد أمسك به الصحابى يسرق طعاماً من بيته قال له إن أردت أن يكفيك الله شرنا يا أبا هريرة، فعليك بقراءة آية الكرسى ولما ذكر ذلك أبو هريرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الصادق المعصوم « لقد صدقك وهو كذوب » كذلك من الأذكار التى تكيد للشيطان وتدحره وترجعه مذموماً محسوراً هذا الذكر « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم والمراد بالجبت الصنم والمراد بالطاغوت الشيطان أو كل ما استفحل طغيانه وشره من الإنس والجن وإن أردت يا أخى أن يحفظك الله من شرور الشياطين وأعوانهم فاعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بأن تقرأ قبل النوم المحصنات الثلاثة قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثلاث مرات هذه السور تقرأها بين كفيك ثم تنفل فى كفيك

ثلاث مرات وذلك بنفخ خفيف دون إخراج ريق وتمسح بها جسمك وتعلمها أولادك فمن لم يستطع أن يتعلمها لصغر سنه فحصنه أنت، ولاتنسين أن هذه الفائدة من صيدلية مبعوث العناية الإلهية، مجربة وصحيحة وكذلك إذا دخلت بيتك فألق السلام على أهلك يكثر الخير فى بيتك ويولى الشيطان مدبراً يقول لإخوانه لا بيت لكم عند هذا الرجل، فإذا جلست إلى طعامك فابدأ باسم الله إنك إذا فعلت ذلك قال الشيطان لإخوانه لا عشاء لكم فإذا نسيت البسملة فى أول الطعام وتذكرتها أثناءه قل بسم الله أوله وآخره . وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه ، فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

واعلم يا أخى أن ذكر الله بالبيوت يرفع من شأنها عند الله والبيت الذى يقرأ فيه القرآن، يتسع لأهله وتسكنه الملائكة وتطرد منه الشياطين، ويكثر الخير فيه، فعليك بالإكثار من ذكر الله «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

واحرص على صلاة النافلة أى السنن فى بيتك قال صلى الله عليه وسلم الصلاة نور أى صلاة الرجل فى بيته نور لمن شاء نور بيته وقال صلوات ربى وسلامه عليه اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا يجعلوها مقابر ، واحرص على صلاة الفريضة فى المسجد « بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

قال الإمام جعفر رضى الله عنه عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعا : عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قول الله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل وقد قال الله تعالى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » وقد قال تعالى « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر » .

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وقال تعالى « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن تقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » وعجبت لمن ابتلى بمكر الماكرين كيف ينسى قوله تعالى « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » .

وقد قال سبحانه وتعالى « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

الحضارة على طريق الانتحار

روجيه جارودى هو واحد من ثلاثة من أكبر شراح الماركسية وطليعة الفكر الشيوعى فى أوربا وعلم من أعلام الفلسفة فى فرنسا ومكافح حمل العلم والبندقية فى وجه الظلم طوال حياته .

هذا الفارس المقاتل والملاح الذى طوف البحار السبعة قد ألقى مراسيه على شاطىء الإسلام ورفع راية لا إله إلا الله ولنستمع إلى الرجل يروى القصة .

كانت بداية الصحوة ذلك البيان السرى الذى ألقاه خروشوف عن ستالين سنة ١٩٥٦ ذلك البيان الذى هتك السّر عن الارهاب والقمع والدم والإعدام والتعذيب والديكتاتورية البشعة التى مارسها ستالين ومن ورائه الحزب الشيوعى .

ثم كان غزو روسيا للمجر بالدبابات ثم اجتياح الجيش السوفييتى لتشيكوسلوفاكيا ثم إرغام الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى على التخلى عن اعتراضاته عام ١٩٦٩ ثم غزو أفغانستان وإخضاع شعبها المسلم بالحديد والنار والغازات السامة .

ويعلق جارودى بمرارة ساخرة : هؤلاء الثوريون المزيفون الذين حاولوا تغيير كل شىء ما عدا أنفسهم .

وهكذا انتهت علاقة جارودى بالشيوعية السوفيتية، كما انتهت علاقته من قبل بالرسمالية الأمريكية .

وكتب عن الحضارة التى تنتحر، تلك الحضارة المادية التى خلعت الله عن عرشه وأقامت الإنسان مكانه، وجعلت من الإنسان إلها وسيداً على الكون والطبيعة ... وكيف دمر الإنسان الطبيعة ولوثها بفضلاته، وهو الآن يوشك أن يدمر نفسه، وفى تحليل دقيق حاول أن يضع يده على ثغرات هذه الحضارة .

إن النموذج السوفييتى والنموذج الأمريكى كلاهما وجهان لعملة واحدة وحضارة مادية واحدة تقدس الفرد .

وهذا التقديس أدى إلى ظهور أباطرة رأس المال والاحتكار فى أمريكا ، وفى الناحية الأخرى أدى إلى النظم الشمولية والدكتاتوريات التى أصبح الفرد فيها طاغية يبتلع المجتمع كله فى داخله ، وهو وإن كان يحكم باسم الحزب أو باسم الأيديولوجية فإن الظلم واحد فى النهاية وإن اختلفت أسماؤه .

والعلاقات الاجتماعية فى هذا اللون من الحضارة المادية، واحدة وهى علاقات عمودية التسلسل من الاستعباد والسخرة فى المجتمعات الشيوعية أو علاقات أفقية من المنافسة والصراع فى المجتمعات الرأسمالية ولذا كان طابع الحياة فى الإثنين هو العنف وتصادم المصالح وإرادة الهيمنة والقوة .

والاقتصاد فى هذه الحضارة المادية لا يهدف إلى نمو صحى بل يخدم نوعاً

من النمو الوحشى هدفه مجرد تشغيل الآلة حتى ولو كانت تنتج أشياء بلا فائدة، أو أشياء ضارة أو أشياء مدمرة وهكذا انتهى هذا النمو الوحشى إلى إنتاج القنابل الذرية والصواريخ ذوات الرؤوس النووية، وإلى ٦٥٠ ألف مليون دولار سلاح مقابل ٥٠ مليوناً يموتون جوعاً. وهواء ومياه وزراعات وأرض ملوثة بالمخلفات الإشعاعية، كيف يمكن أن نسمى هذا اللون من الحياة تقدماً.

وقد اشتعلت هذه الدول المتقدمة الحروب الصغيرة فى العالم الثالث وحاصرته المؤامرات، لتجعل منه سوق سلاح تبيع فيها فوائض إنتاجها وتجرب فيه أسلحتها الجديدة، وتستنفد الثروات القومية لشعوب تعيش تحت مستوى الفقر، وخلقت نوعاً من الإعلان والبروباجندا والدعاية بالتليفزيون والسينما والصحف والملصقات، وسلطته على الجماهير لترويج وتزيين منتجات لاتنفع، وأحيانا تضر، واستخدمت خداع الألوان وبريق الفن وأساليب الايحاء، لاستدراج الناس إلى هذه الفاترينة الخادعة من البضائع الاستهلاكية، وإلى حياة فارغة من التبذير السفيه بهدف اختلاق حاجات ثم إشباعها، وكمثال عدد الأحد من النيويورك تايمز وهو ٩٠ ٪ إعلانات يستهلك من الورق ما يكفى لطبع جميع الكتب المدرسية التى تحتاجها الكاميرون فى عام كامل.

وكل هذه الطاقة تذهب سدى فى سبيل ترويج ما ينفع وما لا ينفع ويحكم نظام التسويق قمة من رؤوس الأموال والاحتكارات والبنوك

فى أمريكا أو استبداد بيروقراطى أعمى فى روسيا ، بينما يعيش العامل فى كلا النظامين فى اغتراب دون هدف أو معنى ، كما الحيوان كل همه إشباع حاجاته ويعيش الكل مجرد كائنات هامشية خاضعة لضرورات وصدف خارجية وتبدو الأحداث وكأنما هى ثمرة قوى وفاعليات عمياء متجابهة وتبدو الحياة مجرد عبث ولا معقول وقلق وغثيان، أما الثقافة والفكر والفن والبرامج التعليمية فهى مجندة مسخرة لإعادة ترويج وتصنيع وطبع نسخ أخرى من هذه المجتمعات الفاسدة، والمساعدات المزعومة للعالم الثالث لا تساعد بل تجر هذه المجتمعات وتقيدها إلى نفس العربة وإلى ذات النمط الآلى الاستهلاكى ولذات النمو الوحشى بلا هدف، والنتيجة أننا أمام نموذجين النموذج الأمريكى والنموذج السوفييتى ، وكلاهما فاشل وكلاهما يجر عربة الحضارة على طريق الانتحار الكونى والثروات على هذه النماذج فى بلادها غير ممكنة ، فقد درجت هذه النظم على أن تحمى نفسها بأجهزة بوليسية محكمة من التجسس والتخابر . . . والعلم فى هذه الحضارة هو علم للعلم وفن للفن وحياة لمجرد الحياة بلا معنى أو حكمة، والفرد محور كل شىء وإشباع الحاجات هو الهدف ثم العودة إلى إشعال الشهوات لخلق حاجات جديدة تتطلب الإشباع من جديد . والإعجاب بالنفس وبالتقدم الكمى وإهمال وإنكار التسامى والارتفاع بالنفس عن هذه الحسائس هو محور تفكير الأفراد والجماعات ، وتدعى هذه النظم ميراثاً مزدوجاً للحضارة الإغريقية والرومانية وللحضارة اليهودية المسيحية وتتناسى أثر الإسلام تماماً ولا ترى فى الإسلام إلا أنه مجرد مترجم وناقل للحضارة الرومانية أو مجر

بدعة ترمى المسيحية بالتحريف والشرك ، أو مجرد آثار فكرية بائدة هى فى مجموعها عقبة وليست حافزا للتقدم وتدعى أن الإسلام فاقد للحياة ولا يستطيع أن يقدم شيئاً أو يعد بشىء .

ويرد جارودى قائلا : غير صحيح إن الحضارة الإسلامية وقفت عند النقل عن اليونان دون عطاء ، بدليل الاختلافات الجوهرية بين نتاج الحضارتين فالرياضيات اليونانية وقفت عند المتناهى بينما اعتمدت الرياضيات العربية على فكرة اللا متناهى ، كما أن أداة المعرفة عند اليونان كانت علم المنطق بينما كانت عند العرب هى العلم التجريبى وكانت الفلسفة اليونانية فلسفة معرفة وعند العرب فلسفة عمل وفعل ، ولم يكن للحتمية المأسوية اليونانية وجود فى المنظور الإسلامى المنفتح على المستقبل التواق للتغيير ، وكانت النظرة الإسلامية نظرة جامعة بين العلم والحكمة « إقرأ باسم ربك » . والمسلم ينظر إلى كل شىء على أنه آية فيها شواهد الحكمة والعناية والقدرة الإلاهية ، بينما العلم فى الغرب مغلق على علموية وتكنوقراطية لا هدف لها سوى الكم والمزيد من الثراء والقوة والهيمنة .

واليوم يعيد التاريخ نفسه ، فنرى الإسلام الذى بدأ فى مجابهة مع الفرس والروم ، نراه اليوم فى مجابهة مع روسيا وأمريكا ، والإسلام يعلمنا أنه فى ضوء الإيمان بالله يبدو لكل شىء حكمة ولكل حدث غاية خيرة وإن خفيت ويشعر كل إنسان أن لعذابه معنى وغاية وأن لا شىء يذهب سدى وأن الحياة مشروع إلهى جميل ، وأن لكل إنسان دوراً منسجماً مع الحركة

الكونية الكلية .. وهو ما يعطى المؤمن إحساساً بالوحدة والانتماء والاستمرار، فالموت ليس نهاية القصة بل هو مجرد انتقال إلى حياة أخرى والإنسان مهاجر إلى الله دنيا وآخرة بلا توقف ... والله فى الاطلاق والسير فى الاطلاق هو ترق بلا نهاية وذلك هو منتهى الأمل ... وهدف المسلم ليس إشباع رغبته بل كبحها وقمعها وضبطها على قانون الحكمة الإلاهية والحرية ليست فى تسلطك على غيرك وليست فى تحصيلك لمزيد من اللذة لنفسك بل هى فى تحررك من نفسك وانقيادك لربك ... وبقدر عبوديتك لله بقدر انعتاقك من ربقة نفسك « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » وفى اقتحام هذه العقبة التى هى النفس يكون التحرير الحقيقى من سجن الضرورة ثم تتواتر الصلوات مع شروق وغروب الشمس والكواكب ، وبذلك يندرج الإنسان فى النظام الكونى حتى حركات الصلاة نرى فيها محاكاة جميلة لما يجرى فى الطبيعة، فالمصلى يقف كما تقف الجبال ويركع وينحنى كما تنحنى الأغصان إلى الأرض، ويسجد كما تسجد النجوم الغاربة لتلمس بجبهتها الأفق وكل المصلين نراهم يصطفون فى دوائر مركزها الكعبة ومع اختلاف التوقيت من مكان لمكان نرى فى كل لحظة جبيناً يسجد وجبيناً ينهض فى فيض متدفق من العبادة وكل شىء فى الكون مسلم لله قهراً منقاد لقوانينه بلا اختيار ماعدا الإنسان الذى أسلم باختياره، وتخطى الأسباب التى مسببها ليصوغ حياته على المثال الأسمى ، ذلك العروج الذى يسمو بالإنسان ويزكى جميع ملكاته هو منحة الإسلام للمسلم والإنسان فى الإسلام خليفة لله فى الأرض لمواصلة الخلق والإبداع

والعمار وإفشاء السلام والمحبة والرحمة والخير والعلم فى الإسلام ، لا ينفصل عن الحكمة ولا عن الإيمان ولا عن الهدف الخير كما لا ينفصل الدين عن السياسة ولا الدين عن الاقتصاد بل الكل وحدة ناشطة إلى إرساء قانون الله فى الأرض والله هو المالك لكل شيء والإنسان مستخلف يتصرف كأمين على خزائن سيده نحن هنا أمام حضارة مختلفة وإنسان مختلف هكذا يعلن جارودى فالحضارة الأوربية الأمريكية لا تعطينا إنساناً بل حيواناً تعملقت أعضاؤه فهو يمشى على القمر بأرجل صاروخية ويسمع بآذان رادارية ويرى بعيون الكترونية ويقتل بمخالب ذرية ولكنه حيوان ما زال واقفاً عن إشباع حاجاته وما زال واقفاً عند نفسه وهواه ورغباته لم يتخطها وهو ديناصور على طريق الانتحار والانقراض .

أما الحضارة الإسلامية فتعطينا إنسانا تخطى حاجاته وتجاوز رغباته ثم بدأ يعلو على ذاته نفسها ثم بدأ يعلو على الزمن ليبنى المساجد ويخاطب الأزل ويناجى الأبد ويكسر قرقعة الحتميات وينعتق من ظلمة الغرائز .

والمجتمع الإسلامى لا تجمعه العصبية ولا القبلية ولا العنصر ولا اللون ولا الأرض ولا القومية ولا الوحدة التاريخية ولا الوحدة الاقتصادية إنما القاسم المشترك الذى يجمع الكل هو الإيمان بالله وبالرسل وبالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله فهى جماعة ربانية تجمعها التسامى والرغبة فى تزكية النفس والعروج إلى الحضرة الربانية بالعمل الصالح والتخلق بمكارم الأخلاق وإدمان الخير والبر والصلاح .

نحن أمام خط سير أخذ بيد الإنسان إلى اللا متناهى بينما فى نمط الحضارة الغربى لا تجد المستقبل إلا امتداداً كمياً للماضى ، ولا نجد الحياة إلا اكتفائية تسجن الإنسان فى حدود أنانيته ومصالحه ورغباته وحاجاته .

بهذا الوضوح المبهر يرى جارودى الإسلام من الشاطىء الآخر من البحر وهو يرى فيه دين المستقبل ونظام المستقبل ، ويرى فيه طوق النجاة للعالم وهو يرى المسلمين قادرين على حمل هذا المشعل، شريطة أن يفتحوا باب الاجتهاد الذى أغلق منذ قرون، ويكسروا قوقعة الجمود ويعودوا للتفاعل مع العصر ويتخطوا الحرفية السلفية إلى فهم حركى لكل المتغيرات التى جدت على الساحة ، ذلك هو جارودى الذى أقبل بسيفه من قلب الأوروبية لنصرة الإسلام والمسلمين .

مرحباً بك طبيباً

قال صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء قط شرا من بطنه فإن كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه .

هذه حكمة بالغة نطق بها طبيب القلوب والأبدان ومعالج الأرواح والأجساد محمد صلى الله عليه وسلم . وإذا كنا سنجلس أمام رمضان طبيباً فإنه طبيب للقلوب والأبدان والنفوس والأخلاق والمجتمع ، إلا أننا فى هذا المقام سنتعلم منه طب الأبدان على أن تكون لنا دعوة أخرى إن شاء الله تعالى، نتتلمذ على يديه طبيباً فى القلوب والأخلاق . لقد عنى الإسلام عناية كبرى ببناء النفوس وهذا هو المجال الصعب فقد يكون من الميسور تشييد ناطحات السحاب والأبراج الباذخة ولكن من الشاق بناء النفوس . . . فالإنسان جهاز معقد إلا ما رحم ربى . . ولذلك لما التقى عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين — بأصحاب الرسول فى مسجده أدار الحوار الآتى : قال عمر ليذكر كل منكم ما يتمناه من الله قال أحدهم أتمنى أن يكون لى مثل أحد ذهباً أنفقه فى سبيل الله، وقال آخر أتمنى ملء المدينة خيلا أغزو بها فى سبيل الله، وقال ثالث أتمنى أن يكون لى ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله، فقال أحدهم لعمر فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ وكان عمر رجلا المعبا عبقرياً نافذ البصيرة لماح الذكاء قال: أتمنى أن يكون ملء هذا المسجد

رجالا أمثال أبى بكر الصديق . . يرحمك الله يا فاروق هذه الأمة ويا عملاق الإسلام .

إن الإسلام وهو يعالج الفرد راعى فى ذلك ثلاثة جوانب الحسد والعقل والقلب، وإذا كنا سنستمع إلى رمضان طبيباً للأبدان فلننصت خاشعين إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « صوموا تصحوا » .

من الحقائق الثابتة أن البطنة بيت الداء وأن الحمية أصل الدواء فالشبع بحر تجرى فيه الشياطين والجوع نهر تسبح فيه الملائكة . . ومن ثم تتبين لنا الحكمة البالغة عندما أهدى المقوقس عظيم مصر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هدية ، كانت عبارة عن جاريتين هما مارية وأختها سيرين وبعض العسل ودابة يركبها وطبيب يقوم على علاج الرسول صلى الله عليه وسلم فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الهدية وأسلمت مارية وولدت له إبراهيم ، وأهدى أختها سيرين إلى الصحابى الجليل حسان بن ثابت ، وشكر الطبيب ورده إلى المقوقس ولما سأله المقوقس لماذا ردك محمد ؟ قال الطبيب : ياسيدى لقد أرسلتنى إلى رجل جمع الطب كله فى كلمتين « نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا وإذا أكلنا لا نشبع » .

ماذا يقول الطب عن الصيام ؟

لقد قام الصيام بدور عظيم فى الطب بقسميه القسم الوقائى والقسم العلاجى ومن الناس من يتوهم أن فى الصيام — وهو من أركان الإسلام —

مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمى خاصة، وغيره عامة ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب، وهذا خطأ لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام فى شىء ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الإفطار والسجود، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لا ضرر من الجوع فى حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبياً فى حالات كثيرة، ووقاية من حالات أكثر رأيت من الواجب أن أكتب عما ظهر طبياً للآن من فوائد هذه الأوامر لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة فيستعمل طبياً علاجياً فى الحالات الآتية :

— اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية .. وهنا ينجح الصيام وخصوصاً مع عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان وممكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر وهذه الطريقة هى أنجح طريقة لتطهير المعدة .

— زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة فالصيام أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام والاكتفاء بالماء فى السحور .

— زيادة الضغط الذاتى، وهو أخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية فى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة وخصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

— البول السكرى، وهو منتشر انتشار الضغط ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً عادة بزيادة فى الوزن فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج فى هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين، وخصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

— التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

— أمراض القلب المصحوبة بتورم :

— التهاب المفاصل المزمن وخصوصاً عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

والصيام الذى كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . . . وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح، والصيام مدة شهر فى السنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض التى تنتشر بزيادة الحضارة والترف .

أسأل الله أن يرزقنا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل .

الجانب الخلقي في الصيام

أهم ما يميز الإسلام العظيم أنه دين الخلق ولكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء فبينما ينادى دعاة الانحلال والفوضى بأن الأخلاق قيد لا معنى له، وبأن الزواج مبدأ فاضح يضع القيود والأغلال فى أيدى النساء وبأنه لا مرجو له إلا البطن والمعدة بينما ينادى هؤلاء بتلك الترهات إذا بنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم يعلنها صريحة تجلجل فى سمع الزمان إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

إن كان للأخلاق ركن قائم
فى هذه الدنيا فأنت البانى
المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنوان

الصيام فى الإسلام ليس مقصوراً على الإمساك عن المفطرات من شهوتى البطن والفرج، إذ هو بهذا المعنى جسد لاروح فيه، فيضحى هامداً خامداً ، كأنه من سكان المقابر إنما الصيام خلق قويم ومبدأ عظيم وجل جلال الله إذ جعل الغاية منه التقوى فجمع فى آية واحدة بين ثلاث قضايا بدأها بالإيمان فى قوله « يا أيها الذين آمنوا » ثم ثنى بالصيام فقال « كتب عليكم الصيام » ثم بين أن الصيام لم يفرض عبثاً وحاشى لله أن يكون فى

أمره أدنى عبث، بل إنه كتبه علينا كما كتبه على أمم خلت من قبلنا لهدف أسمى وغاية عليا إن الهدف « لعلكم تتقون » .

وإذا كان علماء اللغة يقررون أن لعل تفيد الترجي وهو توقع حصول الأمر المحبوب فإن توقع الحصول يفيد الجهل بهذا الأمر، والجهل على الله محال إذ هو صفة من صفات النقص، والمولى تبارك اسمه متصف بكل كمال يليق بذاته منزه عن كل نقص أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً فهو سبحانه لايتوقع حصول شيء لأنه علم كل شيء علم ماكان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

ومن ثم فإن علماء اللغة قرروا أن لعل في حق الله تفيد الغاية، ومن ثم فإن المعنى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لتتقوا » .

وكلمة التقوى كلمة جامعة تسع الدنيا وما فيها، وهي الكلمة التي كانت تجرى على ألسنة الناصحين يقدمونها نصيحة خالصة لكل مسلم أياً كان موقعه ، قال رب العالمين لنبيه صلى الله عليه وسلم « يا أيها النبي اتق الله » .

وقالها أحد الصحابة لفاروق هذه الأمة « اتق الله يا عمر » وغضب الجالسون ، وعمر يحسم الموقف بكلمات أصبحت مبدأ من المبادىء العمرية . . قال « لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها » .

وقالها عمر لأهله وذويه بعدما تولى الخلافة . . قال يا آل عمر اتقوا الله . . فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم .

بل لقد كان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مستشار خاص يسمى عمر بن مهاجر . . قال له أمير المؤمنين يا عمر إن رأيتنى ضللت فخذ بتلابيبى وهزنى هزاً عنيفاً وقل لى « اتق الله يا عمر . . فإنك ستموت وقالها أحد العارفين المخلصين لهارون الرشيد . وهو يطوف بالبيت قال له اتق الله يا هارون فلم يغضب منه ولكن قال له أتناديني باسمى وأنا أمير المؤمنين ؟ قال له الرجل بكل بساطة ودون ما تعقيد إذا كنت أنادى على الله باسمه فأقول « يا الله » فكيف لا أناديك باسمك فابتسم أمير المؤمنين وتكررت كلمة التقوى فى سورة الطلاق ولله فى ذلك حكمة بالغة فإن التقوى هى السلاح الأقوى ، تقوم باصلاح ذات البين ، وتطرد الشياطين من سكنى البيوت قال تعالى فى هذه السورة « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب» . وقال « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

وقال « ومن يتق الله يكفر عند سيئاته . ويعظم له أجراً » .

وقال قبل ذلك « واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن » .

والتقوى فى الصيام تظهر جلية واضحة ، لأنها من أعمال القلوب . وقد أشار الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه إلى صدره قال التقوى : ها هنا وإذا كانت التقوى فى أعمال القلوب فإن الصيام هو العبادة السرية التى لا يطلع عليها إلا علام الغيوب .

قد يستطيع المرء أن يأكل ويشرب فى نهار رمضان ملء بطنه ويخرج

على الناس شاكياً من شدة الظمأ ، ونشوة الجوع ولكن من الذى يعلم ما فى الصدور ، الله يدرى ما تضمر . يعلم ما تخفى وما تظهر وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر .

إذن فالعلاقة وطيدة بين الصيام والتقوى كلاهما سر . ومن هنا فإن الله خص الصيام بخاصية عظمى عندما قال فى حديثه القدسى الجليل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

التقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل . . فلا خداع ولا سمعة ولا رياء وهذا هو الخلق القويم . . لا يعلم ما فى الضمير ويسمع إلا الله .

إن المكارم أخلاق مطهرة
الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والفضل سادسها
والبر سابعها والشكر ثامنها
والصبر تاسعها واللين باقيها

الصوم ضابط للنفس . . والنفس لا تضبط إلا من داخلها إذ هو إمساك عن الدوافع الفطرية . . وجهاد يمنع صاحبه أن يقرب طعاماً أو شراباً أو يأتى شهوة فهو حرمان مشروع . . وتهذيب بالجوع وخشوع لله وخضوع . .

يتجلى جهاد النفس فيه، فتقوى إرادتها وترتفع عن الدنايا « وكل ما يخل بالمروءات وتحارب الشيطان . قال سيد الأنام عليه الصلاة والسلام « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .. فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش» وجهاد النفس أمر مطلوب .

لكل نفس وإن كانت على وجل
من المنية آمال تقويها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها
ولست أرشد إلا حين أعصيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها
فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

رمضان شهر النصر

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

فى العام الثانى من الهجرة وفى السابع عشر من رمضان وقعت غزوة بدر فقد تحرك معسكر الشرك إلى معسكر التوحيد ، وقال زعيمهم عمرو إبن هشام واللات والعزى لا نغادر بدراً حتى نشرب الخمور وننحر الجزور وتغنى علينا القيان ، ونقتل المسلمين وتسمع بنا العرب جميعاً ـ ويرد القرآن الكريم فى حزم « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

ويقف قائد المسلمين الأعظم ، يرسل هذه البرقية العاجلة إلى رافع السماء بلا عمد متحدثاً عن أصحابه . اللهم إنهم جياع فأطعمهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم حفاة فأحملهم .

هؤلاء العراة الجياع الحفاة ، وقفوا فى الميدان أمام قوم غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع قساة القلوب » . « إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » فما هى بدر ؟ وماذا تم فيها ؟ وما نتائجها ؟ وكيف جرت الأحداث فى ميدان القتال عندما صمتت الألسنة ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ودماء تهدر .

إليك الإجابة عن هذه الأسئلة كاملة : ما هى بدر :

إنه ماء مشهود بين مكة والمدينة بينه وبين ساحل البحر الأحمر ليلة ، وهو المكان الذى شهد الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغى والطغيان بعدما اشتد أواره واستعر ناره . . ونظراً لتفوق قوى الباطل الهائل فى العدة والعدد ، فقد كان هناك إحجام فى بداية الأمر من المؤمنين لخوض القتال كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لا مهرب منه ، وقد عبر سبحانه جل شأنه عن حالهم تلك فقال « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ولكن الله يريد أن يحق الحق بكلماته ، وينشر نوره فى الأرض وليكون هناك درس عملى لكل الأجيال التى ستأتى على مر العصور يلقنها إن للنصر أسباباً حسية ومعنوية ، وأن لله سنناً مطردة وتوفيقاً يمنحه لخلقه المتمسكين بالحق والمدافعين عنه ، فترجح به كفة الضعفاء على الأقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، « وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين وهزيمة للمشركين ، وعظة وعبرة وزاداً على مر التاريخ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تحركت قوات المسلمين من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة سالكة طريق القوافل بين المدينة وبدر البالغ طوله حوالى (١٦٠) كيلومترا ، وهدفها الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبى سفيان والتى كان يحميها بين ثلاثين إلى أربعين رجلا .

بلغت تلك القوات للمسلمين (٣١٤) رجلا من المهاجرين والأنصار بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان معهم فرسان فقط وسبعون بعيراً » يتعاقب الرجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد ، يتحقق فى ذلك المساواة التامة حتى مع القائد الأعلى الذى رفض أى امتياز على جنوده فعندما عرض عليه شريكاه فى البعير وهما على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى أن يركب هو ويمشيا قال لهما « ما أنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما .

كانت قوة المسلمين تتحرك بالترتيبات التالية :

أولا : دورية استطلاعية أمامية للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة التجارية ونوايا قريش .

ثانياً : القسم الأكبر مؤلف من كتيبتين : كتيبة المهاجرين ورايتها مع على إبن أبى طالب وعمير بن هاشم وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ : وهاتان الرايتان سوداوان .

ثالثاً : مؤخرة بإمرة قيس بن أبى صعصعة .

رابعاً : راية المسلمين العامة بيضاء مع مصعب بن عمير بن هاشم .

عندما وصل المسلمون (وادى زفران) قرب بدر جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم ، وبلغت قوة المشركين (٩٥٠) رجلا معهم مائتا فرس يقودونها وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم وكانت

بقيادة عدد من رجالات قريش . . وعندما علموا بنجاة قافلتهم تضاربت الآراء، فمنهم من يريد الرجوع ومن هؤلاء بنو زهرة الذين رجعوا فعلا، ومنهم من يريد البقاء ومعنى ذلك الاصطدام بالمسلمين .

وانتصر رأى أبو جهل زعيم الذين أرادوا البقاء لقتال المسلمين، الذى قال بجاهلية عمياء : والله لا نرجع حتى نرد بدراً . فنقيم عليه ثلاثة ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وهنا كان لابد من اتخاذ قرار من أصعب القرارات فى حياة المسلمين .

إنه قرار تاريخى يميز الله به الخبيث من الطيب ورغم ما فيه من صعوبات ومشاق إلا أنه يحمل الخير كل الخير للإسلام والمسلمين .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

وقف الرسول يشاور أصحابه بما بلغه من أمر قريش ، فإن كانوا يريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور بالحصول على العير، وألا يلقوا مايرزؤهم فى أبدانهم وأموالهم بالقتال ومشقاته . فإن الله عز وجل يريد معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق ، وعلو الكلمة . والفوز فى الدارين، لذلك فقد اختار لعباده المؤمنين الطريق الأصعب ولكنه الأسمى وهو طريق الجهاد ، وكسر قوة الشرك بإيمان المؤمنين : « ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

لذلك كان الرد على مشورة الرسول لأصحابه، هو الاستجابة لأمر الله تعالى، فقد أدلى أبو بكر وعمر برأيهما فأحسنا ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى :

إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد — وهو مدينة باليمن — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» ولما كرر الرسول كلمة : أشيروا على أيها الناس أحس الأنصار أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يريد سماع رأيهم ، فقام سعد بن معاذ وأجاب إجابة المؤمنين الصادقين لربهم والحافظين لعهودهم فقال : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك مناماً تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

إن ما تفخر به العقلية العسكرية حالياً من تفتق ذهنها عما يسمى ، بالاستراتيجية ، وهى أساليب القتال وقواعده هو ما أرسى قواعده الرسول الكريم منذ أربعة عشر قرناً فى جميع غزواته وحقق فيها انتصارات باهرة

باستثناء غزوة أحد التى خالف فيها الرماة أوامره . . إن تلك الاستراتيجية التى وضعها الرسول كانت نابعة من إعلام القرآن له إن للنصر أسباباً حسية ومعنوية فلم يأل جهداً فى تعبئة هذه الأسباب بجميع جوانبها . . ولا غرو فهو خير البشرية جمعاء والمعلم الأكبر لها . . لذلك فإن القائد الأعلى لجنود الحق لم يخض القتال إلا بعد استراتيجية محكمة تمثلت فى الآتى :

— ارسال دوريتى استطلاع بغرض الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها حتى يكون التحرك من أرضية ثابتة .

— استشارة أصحابه فى تحديد موضع معسكر المسلمين تبعاً للحرب والرأى والمكيدة وأشار عليه الحباب بن المنذر بأن يكون المعسكر بحيث يمتلك المسلمون مواقع الماء .

— أخذوا بقسط من الراحة بقية الليل ليكونوا أقوياء فى الصراع الوشيك .

— انتخب الرسول موضعاً مشرفاً على منطقة القتال فى بدر وبنى فيه مقره — العريش — وأمن حراسة هذا المقر .

— أمر الرسول أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين ، وهم مرابطون فى مواقعهم قائلا لهم « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » .

— حدد لهم كلمة تعارف بينهم كشعار فى القتال وهى : أحد . أحد وهذا ضرورى فى معركة يتشابه فيها الطرفان فى كل شىء .

ولم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً يجعل المعركة فى صالح المسلمين إلا اتبعه، وهكذا دخل المسلمون المعركة بمقر قيادة كامل وسيطرة لقائد واحد ، وأسلوب جديد فى القتال لم تعرفه العرب من قبل ، هو أسلوب الصف .

سير القتال يوم بدر

بدأ المشركون الهجوم أولا، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذى بناه المسلمون قائلا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف ضربة أطارت نصف ساقه، ومع ذلك حبا إلى الحوض لاقتحامه وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه .

برز من المشركين عتبه وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة فخرج إليهم فتية من الأنصار، ولكن الرسول أعادهم وطلب خروج عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب، لأنهم من أهله فهو يؤثرهم بالخطر على غيرهم ، ولأن شجاعتهم وممارستهم للقتال معروفة لذلك فإن نجاحهم مضمون على رجالات قريش، مما يرفع معنويات المسلمين ويضعضع معنويات المشركين .

بارز عبيدة عتبة وبارز على الوليد وبارز حمزة شيبة أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وكذلك فعل على وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر فكر على وحمزة بأسيافهما على عتبة، فأجهزا عليه واحتملا صاحبهما.

استشاط المشركون غضباً لهذه البداية السيئة، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم وهاجمتهم فرسانهم، إلا أن صفوف المسلمين بقيت صامدة

فى مواضعها، تصوب نبالها على المشركين متوخية إصابة ساداتهم بالدرجة الأولى ولم يفطن المشركون لأسلوب المسلمين الجديد فى القتال، مما جعل رجالات المشركين تتهاوى بوابل نبال المسلمين المصوبة تصويباً دقيقاً والمسيطر عليها .

نزل الرسول بنفسه يقود صـــفوف الجند ، وكان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة نادرة، وبشوق وطيبة خاطر عظيمين رأى الخطر محدقاً بأصحابه، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عدداً وعدة فقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله، وشجع أصحابه على الصبر فى القتال بخوض المعركة بنفسه، وحسبنا شهادة على بن أبى طالب سيد الشجعان حيث يقول إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمر الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو .

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر رجلان عتبة بن ربيعة وأبو جهل ، وهما لم يكونا على رأى واحد ولم يكن لهما هدف واحد بل أنهما كانا أقرب إلى العداوة منها إلى الإخاء، لذلك فقد طغت الأنانية الفردية على المصلحة العامة أثناء القتال، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلا لتتحدث العرب عنه، دون أن يكترث بأثر ذلك على نتائج المعركة .

ابتدأت المعركة صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وانتهت مساءه، وبقى المسلمون ثلاثة أيام فى بدر بعد المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة بعدما استشهد منهم أربعة عشر مسلماً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، أما المشركون فقد قتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون أيضاً . لقد كانت معركة بدر صراعاً حاسماً بين عقيدتين، فانتصرت العقيدة التى تستحق البقاء على العقيدة التى تستحق الفناء .

للنصر أسباب فيجب مراعاتها، وهذه الأسباب إذا صحت وسلمت أدت إلى النصر المبين وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم وهذه الأسباب هى:

١ — **قيادة موحدة** : كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد العام للمسلمين فى معركة بدر ، وكان المسلمون يعملون يداً واحدة تحت قيادته يوجههم فى الوقت الحاشم للمحل الحاسم للقيام بعمل حاسم وهذا هو واجب القائد الكفء .

٢ — **تعبئة جديدة** : طبق الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسيرة الاقتراب من المدينة إلى بدر تشكيلا لا يختلف بتاتاً عن التعبئة الحديثة فى حرب الصحراء أما فى المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر .

٣ — **عقيدة راسخة** : كانت للمسلمين أهداف محددة يؤمنون بها جعلتهم يقاتلون فى بسالة وشجاعة منقطعة النظير، لتكون كلمة الله هى العليا

حتى أن هذه العقيدة ألقت أشعتها على الأحـــداث الصغار أيضاً . قال عبد الرحمن بن عوف إنى لفى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديث السن ، فكأنى لم أمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه يا عم أرنى أبا جهل فقلت يا ابن أخى ما تصنع به ، قال عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه .

٤ — **معنويات عالية** : لم يكن الرسول القائد فقط هو الذى يشجع على القتال ، ويرفع معنوياتهم ويقوى عزائمهم ، بل كان هناك المدد الأعلى ينزل به الروح الأمين « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

الدروس المستفادة من بدر

لا أجد أبلغ من القرآن الكريم فى دروسه ولقد نزلت سورة الأنفال فى شأن غزوة بدر وفيها نداءات إلهية لو علمت بها الأمة لتبوأت مكانتها فوق قبة الفلك وقبل النداءات كان بناء النفوس واضحاً وجلياً بناؤها على ماذا ؟ على الإيمان بالله والخوف منه سبحانه والعمل بما أنزل إسمع معى إلى قوله جل شأنه .

« فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » . نعم ! تقوى وإصلاح ذات البين وطاعة لله ورسوله ؛ تلك معالم الإيمان، وأن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

ثم يبين بعد ذلك معالم المؤمنين فيبين لهم خمس خصال .

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

تلك الخطوط العريضة للجماعة المسلمة وهذا هو المنهج العام المستقيم لتكون أمة حقيقية وجديرة بأن ترث الأرض « ولقد كتبنا فى الزبور

من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ثم تتوالى النداءات الإلهية ترشد وتوجه وتحذر ومن أصدق من الله قيلا ومن أصدق من الله حديثاً « هل أنتم أعلم أم الله » الجواب « الله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

إن النصر فى الحرب لا يحرزه المقاتلون فقط، بل يتعاون على إحرازه المقاتلون فى الخطوط الأمامية والعاملون فى الخلف، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين، لذلك لم ينس الرسول صلى الله عليه وسلم العاملين فى الخلف حين قسم الغنائم بين الناس، وهو ما يؤكد أهمية الجبهة الداخلية وصمودها الإيمانى فى تحقيق النصر .

إن دوريات الاستطلاع مفيدة فى الحصول على المعلومات للحيلولة دون مباغتة الأعداء ، وهذا ظهر جلياً فى تلك الدورية الاستطلاعية التى بعث بها الرسول ، للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها .

إن الجيش الممتاز هو الذى يتحلى بضبط ممتاز، وقد كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة نادرة، وبشوق وطيبة خاطر عظيمين ومن حقهم أن يفعلوا ذلك ، لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالى : صبر فى الشدائد وشجاعة نادرة فى المواقف الحرجة ، نابعة من الاتصال بالله ، ومساواة لنفسه بأصحابه واستشارتهم فى كل عمل حاسم وأخذه بالمشورة ، وعندما اشتدت المعركة نزل يخوضها بنفسه .

إن معاملة الأسرى طبقاً لمبادىء الإنسانية، وحمايتها من الاعتداء والإهانة قد أرست قواعدها غزوة بدر، فقد وزع الرسول صلى الله عليه وسلم الأسرى على صحابته قائلا لهم « استوصوا بالأسارى خيرا » ثم فادى أغنياء الأسرى بالمال، أما الفقراء فقد أطلق سراح بعضهم دون مقابل، كما كلف المتعلمين من الأسرى بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال .

وهذه الدروس نابعة من توجيهات الله للأمة المسلمة، فى نداءاته لعباده المؤمنين « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون » .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

« يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

كل هذه النداءات وردت فى سورة الأنفال .

أحب الأعمال الى الله

هكذا جاء رمضان ومضى وأتى العيد وانقضى .

غدى سيصبح أمسى لا يعارض فى ذاك حى وأمسى لن يصير غدى .

فالأيام خمسة ، يوم مفقود ويوم مشهود ويوم موعود ويوم مورود ويوم ممدود . أما اليوم المفقود، فهو الذى مضى ولن يعود وأما اليوم المشهود فهو اليوم الذى أنت فيه والذى يناديك عندما ينشق فجره : ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة، وأما اليوم المورود فهو الغد الذى لا يعلم ما فيه إلا الله إن الإمام مالك ابن أنس رضى الله عنه رأى ملك الموت فى المنام ذات ليلة فسأله كم بقى من عمرى فأشار له ملك الموت بأصابعه الخمسة قال الإمام أى خمس هى ؟ أسنون أم أشهر أم أيام، ولكن الإمام استيقظ قبل أن يجيب الملك فذهب إلى محمد ابن سيرين وهو عالم تعبير الرؤيا وسأله أى خمسة ؟ فقال له ابن سيرين يا إمامنا ليست هى سنين ولا شهوراً ولا أياما إنما يريد الملك أن يقول لك أن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » .

أما اليوم الموعود، فهو اليوم الذى يتم فيه لقاء الإنسان بربه وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

قال جل شأنه يصور هذا المشهد « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » إنه اليوم الذى ينادى فيه الله على نفس المؤمن فيقول « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

وتأمل معى قوله جل شأنه « ارجعى إلى ربك » لم يقل اذهبى أو أخرجى إنما قال « ارجعى » ذلك لأنها من الله فإذا ما خرجت فإنما رجعت إلى حصنها الحصين وركنها الركين، إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، كخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا .

أما اليوم الممدود فهو اليوم الذى ينادى الله فيه على الخلائق أين الملوك وأبناء الملوك ، أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين عاشوا فى خيرى وعبدوا غيرى ، لمن الملك اليوم فيجيب سبحانه على ذاته « لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب.

كأنى بقول القائل يخاطب رمضان الراحل :

فيا شهر الصيام فدتك نفسى
تمهـــل بالرحيـــل والانتقال
فما أدرى إذا ما لحـولى ولى
وعـدت بقابل فى خـير حالى
أتلقانى مع الأحياء حياً أو
إنك تلقـنى فى اللحـد بالى
فهـذى سنة الدنيـــا دواماً
فراق بعـد جمـع واكتمال
وتلك طبيعـة الأيام فينـــا
تبـدد نـورها بعـد الكمـال

هل انتهت أعمال البر بانتهاء رمضان وانقضاء العيد، وهل ستهجر المساجد ويقل فيها الراكع والساجد ، وهل سنعود إلى العادة ونترك فرائض العبادة كلا ليس للبر موعد محدد ينقضى بانقضائه وليس للصلاة شهر مخصوص تنتهى بانتهائه قال تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » وقال جل شأنه « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ..

وقال عز من قائل « والذين هم على صلاتهم دائمون » .

وأول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة . . الصلاة مفتاح الجنة كما أخبر الصادق المعصوم، فخبرنى بربك كيف يدخلها من ليس معه مفتاح . أفيقوا أيها المسلمون من غفوتكم واستمعوا إلى هذا المشهد الذى يدور الحوار فيه بين أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين » واليقين هنا هو الموت وسمى يقيناً لأنه الأمر الذى لا تشوبه شائبة الشك « كل نفس ذائقة الموت » قال تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

هل انتهت أعمال البر بعد انقضاء العيد ؟ كلا واستمع معى إلى هذا الحشد ، وتلك الكوكبة النورانية من أحاديث الصادق المعصوم فى البر والصلة .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله » (رواه البخارى ومسلم)

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» رواه مسلم وأبو داود وعن عبد الله

ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال :«جاء رجل إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان ؟ فقال ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما ». (رواه أبو داود)

وعن أنس رضى الله عنه قال : «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه فقال هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى قال : فقابل الله فى برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » رواه أبو يعلى والطبرانى والمعنى أنك لو أرضيت أمك حزت ثواب الذى حج واعتمر وحارب فى سبيل الله .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال :« أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال إنى أذنبت ذنباً عظيما فهل لى من توبة ؟ فقال هل لك أم ؟ قال لا ، قال : فهل لك من خالة ؟ قال : نعم قال فبرها » . (رواه الترمذى)

عن أبى بردة قال قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال أتدرى لم أتيتك قال : قلت لا قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده وأنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك » .
(رواه ابن حبان فى صحيحه)

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم

الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » . (رواه البخارى ومسلم)

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره — أى أجله — فليصل رحمه » .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير أوصانى ألا أنظر إلى من هو فوق وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت وأوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مراً وأوصانى أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » . (رواه الطبرانى وابن حبان)

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله عز وجل أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسماً من إسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته أى فصلته وقطعته » . (رواه أبو داود)

عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل ما وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال فذاك لك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا

إن شئتم فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ». (رواه البخارى ومسلم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أعمال بنى آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلاتقبل عمل قاطع رحم » . (رواه أحمد)

حقائق الأشياء ثابتة

قال أهل الحق حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق ومن حقائق الأشياء أن المعجزات حق واضح واقع وأن السحر والشعوذة أمر باطل، لأنه من عمل المفسدين وهذا الحديث نسوقه تتمة لبحثنا فى المعجزات . هذه حقائق مقررة عند علماء العقيدة ولكى يتضح المقال لابد من الاستشهاد بمشاهد قرآنية يتضح فيها المعجزات وأباطيل السحر ، لقد اخترنا هذا المشهد من سورة الأعراف وأرجو القارئ أن يستحضر ذهنه ويعمل فكره وعقله فى فهم هذا المشهد . وهذا المشهد يتكون من جزءين أولهما يتحدث عن السحر وما فيه من تخيلات حسية وأوهام عقلية وثانيهما يتحدث عن المعجزة وأنها حقيقة ثابتة وإليك المشهد الأول .

قال تعالى « وجاء السحرة فرعون قالوا إنا لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » .

إلى هنا ينتهى مشهد السحر، وقد ثبت بما لايدع مجالا للريب انه يخيل للحراس وصرف للأشياء عن حقيقتها .

ويأتى المشهد الثانى وفيه تتبين المعجزة أجلى من الشمس فى ضحاها

وفيها الحق يتجلى للقمر إذا تلاها وتشع على أيدى الأنبياء بصدقها كالنهار إذا جلاها وبين ليل السحر وظلمته ونهار المعجزة وضياه يقف العاقل موقفاً يطمئن له قلب المؤمن كما وقف السحرة عندما تبين لهم الحق وقالوا لفرعون آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

أما المشهد الذى يحدثنا عن المعجزة فقوله تعالى « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » .

قف معى عند قوله تعالى « وأوحينا إلى موسى » من الذى أوحى إنه الله لا دخل للشيطان فيه أما السحر فإن الشيطان هو الذى يلهم أولياءه لذا قال القرآن الكريم عن الحق المنزل « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون » وهذا فرق كبير بين المعجزة والسحر .

فالمعجزة وحى من الله والسحر تخيل من الشيطان . ثم قف عند قوله تعالى « أن ألق عصاك » فالحقيقة أنها عصا لا تخيل فيها ولا إيهام وعصا عادية يمسكها أى راع يرعى الغنم « وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » هى العصا نفسها تنقلب من حقيقة إلى حقيقة أخرى تنقلب ثعباناً مبينا بكل ما فى الثعبان من خواص خلقية، والثعبان هو حقيقة لاتخييل فيها ولا وهم . وفى ميدان السحر وقد ألقى السحرة الحبال والعصى، إذ بتلك العصا وقد

انقلبت ثعباناً تلقف كل هذا الإفك وفى لفظ (تلقف) ما يوحى إلى شدة ابتلاعها حتى انفض الميدان مما فيه ، خوفاً من هذا الثعبان الذى كأنه جان فى خفة حركته وقوة بأسه ولم يقل تعالى فإذا هى تلقف ما ألقوا من العصا والحبال إنما تلقف هذا الإفك والضلال .

ثم قف عند قوله تعالى « فوقع الحق » ففى لفظ وقع الحق إلى أن جسما ثقيلا ارتطم فيها ، لاتخييل فيها ولا إيهام ثم يظهر الفرق جلياً بين المعجزة والسحر فى مشهد مهيب ورهيب ، فالمشاهدون للسحر لم تخروا ساجدين لعظمة السحرة وجلال الموقف وبينما امتلأت أرض المباراة بالعصى والحبال وقال الناس فى غير حق، وكانوا متحيزين تحيزاً عشوائياً لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . وكان منطق العدل يقتضى أن يقولوا لعلنا نتبع الحق حتى لايتحيزوا للسحرة . امتلأت أرض المباراة بالحبال والعصى والمشاهدون يشجعون السحرة، ومع ذلك ما رأينا أحداً خر ساجداً . فلما جاءت المعجزة وتجلى دورها تغير الموقف تماماً، اسمع معى هذا المشهد القرآنى العظيم من سورة طه « قالوا يا موسى إما أن تلقى وأما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى » .

فماذا كان موقف فرعون لما رأى الحق فى جلاله وقوته ؟ لقد اشتاط

غضباً وصرخت الدماء فى أوصاله وقال : « آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى» فاذا كان موقفهم بعدما تمكنت بشاشة الإيمان مدر شفاف قلوبهم ؟ لقد كانوا فى الصباح يقسمون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . وبعد ظهور الحق أقسموا بالله وقالوا : والذى فطرنا (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات . والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض . إنما تقض هذه الحياة الدنيا) ثم لقنوه درساً فى العقيدة دونما خوف ولا وجل . فمن خاف الله خوفه الله من جميع خلقه ، ومن أرضى الله بأسخاط الناس كفاه الله شر الناس ومن أسخط الله بارضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته:

فليتك تحلوا والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

نعم . لقد لقنوه درساً فى العقيدة قالوا له : « إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » جاء ذلك رداً على قوله « ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » ثم انتقلوا به من عالم الدنيا التى

وصفوها بقولهم : إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إلى عالم الآخرة حيث الخلو والسرمدى فقالوا : «إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » .

فتأمل معى الفرق الدقيق بين العبقرية والجنون وبين المعجزة والسحر ، وبين السحرة قبل ظهور الحق وبينهم بعد ظهوره جلياً . كانوا فى الصباح سحره كفره فما دجى الليل إلا وهم عند الله شهداء بررة فيا مقلب القلوب . ثبت قلوبنا على دينك .

وقد يسأل سائل . هل للسحر من علاج ونقول إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين العلاج ناجعا وشافياً، وذلك عندما أوصانا بقراءة سورة البقرة فقال : اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة . وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة . والبطلة هنا هم السحرة . وأخبرنى حديثه قائلا إن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة .

إن هذه السورة قد اشتملت على أصول العقائد وشعائر العبادات وقواعد النظام ومبادىء الأحكام ومناهج السلوك . ودلائل التوحيد ، وقصص الأنبياء وحدود الحلال والحرام . وبجانب هذا كله أشتملت على سيره أى القرآن العظيم وهى آية الكرسى . واشتملت آية الكرسى على اسم الإله الأعظم وهو الحى القيوم . وقد ورد فى القرآن فى ثلاثة مواقع هذه

الآية إحداها . وثانيها قوله تعالى فى سورة آل عمران « ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

وثالثه هذه الآيات قوله تعالى فى سورة طه . «وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » إذا علمت أن السحر يأتى من الشياطين فلا يهولنك هذا ، فإن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقد بين القرآن علاج الشيطان حتى تتقى شره . قال تعالى فى سورة الأعراف : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » . وفى سورة المؤمنون « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » وفى سورة النحل « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » .

ومما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر وأعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده . ومن همزات الشياطين وأن يحضرون وعلمنا أن نقول فى الرقى أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وقبل هذا وبعده تقوى الله . فالتقوى تمنع وساوس الشيطان وشروره وترد حسد الحاسدين وكيدهم إلى نحورهم . فقد بلغ من إيمان عمر رضى الله عنه أنه كان إذا سلك طريقاً ، سلك الشيطان طريقاً آخر لأن الشيطان كان يفر من ظل عمر وقد أنزل الله المعوذتين لإبطال السحر والحسد .

فمن حافظ على قراءتهما وتحصين نفسه بهما لا يصيبه بإذن الله شيء من هذا الشر . وكان عمر رضى الله عنه يرقى المريض بسورة الفاتحة فيشفيه الله .

ولا تنس أن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتسع لأهله ويكثر خيره وتسكنه الملائكة ويطرد منه الشياطين . كما أنى أوصى نفسى وإياك بالإكثار من من ذكر الله فى البيوت . قال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم . وأرفعها فى درجاتكم . وخير لكم من إنفاق الذهب والورق . وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . قلنا بلى قال ذكر الله وما من ساعة تمر على ابن آدم لم يذكر الله فيها إلا ندم عليها يوم القيامة » .

فاللهم أغننا بالعلم . وزينا بالحلم وأكرمنا بالتقوى ، وألبسنا ثوب العافية ، واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك .

قميص الشفـاء

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » .

هذه الكلمة حلقة فى سلسلة الآيات الإلهية وهل كان قميص الشفاء فى قصة يوسف إلا آية ناطقة بجلال الله وعظمته .

وإنما خصصنا الحديث عن قميص الشفاء لأن القميص فى قصة يوسف قام بثلاثة أدوار أولها : قميص الجفاء .

« وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وإنما حكم يعقوب (عليه السلام) عليهم بهذا الحكم لأن هناك حيثيات تدل على ذلك، فالقميص لم يخدش ولم يصبه أى تمزيق ومن ثم قال لهم أبوهم : أى ذئب هذا العاقل الذى افترس يوسف دون أن يكون فى القميص أى أثر . (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) وعندئذ لا حيلة ولا وسيلة إلا الصبر إذ ماذا يصنع أمام تلك الحيلة ؟ ومن هنا فقد حم القضاء وقضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له سوى الصبر الجميل .

قال صلى الله عليه وسلم ذات يوم لإصحابه أمؤمنون أنتم ؟ قال عمر نعم يا رسول الله قال : فما علامة إيمانكم ؟ قال : نصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ونشكر فى الرخاء . قال الصادق المعصوم مؤمنون ورب الكعبة .

قال الله تعالى فى حديثه القدسى الجليل « من رضى بقضائى وصبر على بلائى وقنع بعطائى وشكر نعمائى كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين . ومن لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يقنع بعطائى ولم يشكر نعمائى فليخرج من تحت سمائى وليتخذ له رباً سواى » .

أما الدور الثانى الذى لعبه القميص فى قصة يوسف دور البراءة عندما قالت امرأة العزيز لزوجها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال يوسف « هى راودتنى عن نفسى » ولكن الموقف ما زال يحتاج إلى كلمة فصل لقد وقف العزيز بين كلام امرأته وبين رد يوسف موقفاً لا يحسد عليه وإذا بصوت ينبعث يعلن بلسان اليقين ومنطق الحق المبين كلمة الفصل ويستشهد بشاهد حسى يعتمد على دليل عقلى لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول . فاستمع معى لما سجله القرآن الكريم فى هذا المشهد المهيب « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

هذا هو موقف الحق مع المظلوم « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

أما الدور الثالث فقد قام به قميص الشفاء فبعد الجفاء والبراءة يأتى الوفاء من يوسف لأبيه والشفاء من الله له، لقد جمع الله الشمل وتلك سنة من سنن الله كلما اشتد الكرب هان ، قال تعالى حكاية عن يعقوب وأبنائه « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لايييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . لايأس مع الإيمان فالحياة ألم يخفيه أمل وأمل يحققه عمل وعمل ينهيه أجل وبعد ذلك يجزى كل بما فعل

إن يوسف عليه السلام لما انتقل من غيابات الجب إلى غاية الحب ومن النوم على الحصير وراء الأسوار إلى التربع على سرير الملك بإذن الواحد القهار « قال له إخوته أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا » ثم لخص طريق السعادة فى كلمتين قال « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

فالتقوى والصبر هما الطريقان الموصلان إلى ذروة السعادة فمن اتقى الله خافه ومن خاف الله عرفه ومن عرف الله فقد أحبه ومن أحب الله فقد

أصبح من حزب الله قال تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

والصبر هو مقاومة النفس والهوى لئلا تنقاد إلى الرذائل، وهو جهاد متواصل أو هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات، حتى لايتردى العبد فى وخيم العاقبة وقد يكون الصبر قناعة إذا كان صبرا عن الغنى ، وقد يكون شجاعة إذا كان صبراً على احتمال الشدائد ، وقد يكون حلما إذا كان صبرا على الجهالة ، وقد يكون عفة إذا كان صبرا على شهوات النفس الأمارة ، وقد يكون قوة إذا كان صبرا على الكد ومتاعب الحياة .

ومهما يكن فإنه صبر « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ولكى يجمع الله شمل الأسرة اليعقوبية حل الصفاء محل الجفاء « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

ثم يأتى دور الشفاء لهذا الرجل الذى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم يأتى هذا الدور بعد أن سلم الأمر كله لله فبعدما قال « وأخاف أن يأكله الذئب قال : عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » فبعدما وقع البلاء وصاحبه الصبر جاء الفرج « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً » كذلك « وائتونى بأهلكم أجمعين » إن يد الله تعمل فى الخفاء وهم لا يشعرون فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة .

ولما فصلت العير حدود مصر قبل أن تصل دار يعقوب بفلسطين قال يعقوب : إنى لأجد ريح يوسف ولم يقل إنى أشم ريح يوسف ، لأن الشم مقصور على حاسة واحدة ، أما الوجود فإنه شامل لكيانه كله فكأنه يقول إن ريح يوسف فى سمعى وبصرى ولحمى ودمى ، فلا تسفهونى ولا تفندوا ما أرى وكان وعد الله حقاً وصدقاً ، فلقد دخل عليه البشير بقميص الشفاء فألقاه على وجهه فارتد البصر أحسن مما كان ، كان الشفاء من الله وكان القميص سبباً .

وعندئذ قال يعقوب لأبنائه « ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » .

وهكذا يضع الله سره فى أشياء ظاهرية فيحولها إلى آيات ومعجزات ألم تكن عصى موسى عصا عادية فصارت بقدرة الله ثعباناً مبيناً ؟ ألم تكن يد موسى يدا عادية أخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء ؟ ألم يكن قميص يوسف قميصاً عادياً ألقى على وجه يعقوب فارتد بصيرا ؟ألم يكن القمر عادياً فى عليانه فانشق معجزة لسيد الأنبياء ؟

فاللهم إنا أصبحنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك إنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ونبيك ورسولك . .

عبد الحميد كشك

الفهـــرس

صفحة

مقـــــدمة ٥
من آيات الله ٧
الثبات على المبـــدأ ١٢
نماذج من الآيات الالهية ١٨
المعجزة والســـحر ٢٢
الحضارة على طريق الانتحار ٢٦
مرحبـــا بك طبيبـــا ٣٤
الجانب الخلقى فى الصيام ٣٨
رمضان شهر النصر ٤٣
سير القتال يوم بدر ٥٠
الدروس المستفادة من بدر ٥٤
أحب الأعمال الى الله ٥٧
حقائق الأشياء ثابتة ٦٤
قميص الشـــفاء ٧١

رقم الايداع ١٩٨٤/٢٥٢٣

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧—١٣٦—٠٢٢—١

طبع بمطابع الأهرام التجارية